الحركة الإصلاحية الجزائرية الحديثة وجهودها في تفسير معاني القرآن الكريم
تفسير الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر بَيُّوض نموذجاً

د. يحيى بن بُهون حاج امحمد
قسم اللغة والأدب العربي / جامعة غرداية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة جزءاً من تاريخ الحركة الإصلاحية الحديثة وجهودها في تفسير معاني القرآن الكريم، وتسلط الضوء على بصمات أحد أقطابها في هذا المضمار، وهو الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر بيوض (1899 - 1981)، الذي برز مبكراً في حقل الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري في منطقة وادي ميزاب، حيث أسسّ معهد الشباب سنة 1925م، وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م ...

وقد اتخذ من دروس تفسير القرآن الكريم منذ سنة 1950 إلى غاية 1980م مضماراً لجهاده الإصلاحي أسوة بأترابه من أقطاب جمعية العلماء، والتفرغ لإصلاح

Abstract :

his study deals with part of the history of the Modern Reformist Movement and its efforts in interpreting the meanings of the Holy Quran. Besides, it sheds light on the heritage one of its pillars in this field. He is the Imam Sheikh Ibrahim Ibn Umar Bayyoud (1899-1981), who emerged early in the field of Reformist Movement in M'zab Valley, in the south of Algeria, where he founded the Youth Institute in 1925, and co-founded the Association of Algerian Muslim Scholars in 1931 ...

He devoted himself to reform his society and promoting future generations who will follow the path of learning youngsters and treating other social issues after

أوضاع المجتمع وعلاج أدواءه، وإعداد أجيال من الرجال الذين قامت عليهم مشاريع الحركة الإصلاحية كتعليم الناشئة ومعالجة الأوضاع الاجتماعية...

ومن أهم نتائج هذا البحث إبراز رسالة الشيخ بيوض المسجدية من خلال تفسيره لكتاب الله العزيز في خدمة مجتمعه وتنوير العقول وفق المنهج الإصلاحي.

الكلمات المفتاحية: الحركة الإصلاحية - تفسير القرآن - إبراهيم عمر بيُّوض.

him, by organizing constant series of lessons for interpreting the Holy Quran from 1950 to 1980.

The most important finding in this research is to highlight Shaykh Bayyoud's message through his interpretation of the Holy Quran for the sake of serving his community according to the Reformist Approach.

Keywords: Reformist Movement - Interpretation of the Quran - Shaykh Ibrahim Omar Bayyoud.

مقدمة:

لقد شهد شمال إفريقيا سطوة أعتا قوة استعمارية في العصر الحديث، متمثلة في الاستعمار الفرنسي، وكان نصيب الجزائر منها 130 سنة من الاحتلال، ذاق فيها ألوان التعذيب النفسي والجسدي والتجهيل والتجويع والتهميش..

وظلت الجزائر كذلك حتى قيَّض الله لها من يُجدد أمر دينها فمكَّن _بعد قرنٍ من الاستعمار_ ثلة من الرجال الصالحين المصلحين إلى سُبل توحيد الجهود، فشمَّروا عن سواعدهم لإنقاذ أمتهم من ويلات الاستعمار وجحيمه...

وكان لظهور الحركة الإصلاحية سنة 1925 الأمل الجديد للجزائر، إذ شرعت في بعث التعليم العربي الأصيل للبنين والبنات، بعدما حرمهم

الاستعمار منه دهراً طويلا، وطورت المناهج التربوية بعد ذلك، وحاربت الفساد الأخلاقي ومظاهر التخلف الاجتماعي...، حتى تكللت جهود أولئك المخلصين _رغم مكر الاستعمار وكيده_ بميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 لتكون بعثاً للأمة الجزائرية المسلمة؛ إذ شرع أقطابها الذين انتشروا في ربوع الجزائر دعاة علمٍ وإصلاحٍ ومن أبرزهم: الإمام عبد الحميد بن باديس[1] في قسنطينة (شرقاً)، والشيخ البشير الإبراهيمي[2] في تلمسان (غرباً)، والشيخ إبراهيم بن عمر بيُّوض في ميزاب (شمال الصحراء)، والشيخ الطيب العُقبي[3] في نادي الترقّي (بالجزائر العاصمة)... وغيرهم؛ شرع هؤلاء على وجه الخصوص في إصلاح الأنفس من خلال دروس الوعظ والإرشاد، وكان تفسير القرآن الكريم رسالتهم إلى المجتمع؛ فاشتغلوا بتفسيره وبيان معانيه، وأخذوا يَعرضون نُظم مجتمعاتهم على مفاهيم القرآن الكريم وتعاليمه لعلاج أمراضها وأسقامها من خلال فهم آياته ومعانيه وإسقاطها على الواقع المعاش...؛ فالقرآن بالنسبة لهم لم يكن كتاب هدايةٍ فحسب، بل دستور حياة ونظام مجتمع.

ويُعنى الاتجاه الإصلاحي والاجتماعي فِي التفسير بالتركيز على إصلاح المجتمع على أساس القرآن، ومعالجة أمراض المجتمع ومشكلاته المختلفة، وتقديم السُّنن الاجتماعية الكفيلة برقيّ المجتمعات وتقدّمها...؛ ومن التفاسير الممثلة لهذا الاتجاه "تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا، و"فِي ظلال القرآن" لسيد قطب، و"في رحاب القرآن" للشيخ بيُّوض.

وفي الجزائر استثمر أصحاب التفسير الاجتماعيّ أو (المنهج الإصلاحيّ) وهم أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هذه الخاصية؛ فقصدوا من تفسيرهم معالجة الانحراف الاجتماعي وتزكية النفوس وتثقيف العقول

والنهضة بالمجتمع، انطلاقاً من كون القرآن الكريم منهج حياة متكاملٍ، إذ عمدوا إِلى إسقاط النصوص على الواقع المعيش، وعرضوا أزمات العصر عَلَى كتاب الله ليهتدوا بنوره إِلى استنباط الحلول المناسبة، فكانوا كثيراً ما يستطردون فِي مواضيع متنوعة تتعلّق بأحداث مجتمعهم وعصرهم التي يريدون الحديثَ عنها ومنها معالجة الانحرافات الاجتماعية... ومحاربة كثير من الآفات التي غرسها المستعمر في نفوس الشباب، فأفلحوا في اجتثاثها من الجذور.

1- "وادي ميزاب" الجغرافيا والإنسان:

"مزاب" أو "ميزاب" هي بادية بني مصعب، أو أرض الشَّبكة، في شمال صحراء الجزائر وتشمل سبعة قرى هي: (العطف، غرداية، بني يزجن، بنورة، مليكة، بريان، القرارة). وأصل بني مزاب من قبيلة بني مصعب البربرية، وهي بطن من زناته، وتمت هجرتهم إلى بلاد الشبكة في القرن الثاني الهجري من سدراته بوارجلان، لكن تأسيس القرى تأخر إلى القرن الخامس الهجري؛ وقد عُرفت بلاد بني مصعب بالبداوة، واعتنق سكانها البربر الإسلام وسبقت إليهم آراء المعتزلة فأخذوا بها، ثم اعتنق أهلها لاحقاً المذهب الإباضي على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفُرسطائي النفوسي في أوائل القرن الخامس الهجري؛ وتعتبر الشبكة أو بادية بني مصعب أو ميزاب مهداً لقبيلة زناته البربرية التي اندمجت معها قبائل أخرى إثر هجرات وفدت من مناطق مختلفة[4].

بناء القرى:

كانت تجنينت (العطف حالياً) أول قرى الوادي تأسيساً وذلك سنة (402 هـ/ 1012م)، ثم بنورة (آت بنور) في (457هـ) ثم غرداية (تغردايت) سنة (477هـ)، ثم بن يزجن (آت يزجن) سنة (729هـ) ثم مليكة العليا (آت ملشيت) سنة (756هـ)؛ أما القرارة وبريان فقد تأخر تأسيسهما؛ إذ بنيت القرارة سنة (1040هـ) وبريان سنة (1060هـ)؛ وقد ألحقت وارجلان بالقرى السبعة لسيادة المذهب الإباضي بها، وقد غلب مصطلح "مزابي" فصار يطلق على الإباضي فقط مراعاة للظرف التاريخي والجغرافي.

يتوسط كل قرية من قرى ميزاب المسجد وتلتف حوله المنازل بشكل هرمي، وتوجد في أغلب القرى مكتبات علمية خاصة وعامة ثرية بالمخطوطات، كما شهد ميزاب نبوغ مجموعة كبيرة من أبنائه في فنون المنقول والمعقول شهد لهم العالم الإسلامي بالرسوخ في العلم.

2- وضع الجزائر خلال مائة عام من الاستعمار 1830 – 1930م

عمل الاستعمار الفرنسي في احتلاله للجزائر طيلة قرنٍ من الزمن على نشر الأمراض الجسمية والنفسية في الشعب الجزائري، وسدّ أبواب الصلاح والشفاء، وأفرخ فيها بشروره، فأضعف الدين في النفوس، ونشر الفساد في المجتمع، وعمد إلى العقيدة الإسلامية التي هي أصلُ الدين في النفوس فأفسدها بشتى وسائله، بتجهيل الناس، وغلق المعاهد العلمية، ومنع العلماء الصالحين من الوعظ والإرشاد في المساجد، ومنع صلاة الجمعة حتى لا يجتمع المسلمون لما يُحييهم...؛ وقد أعان المستعمرُ المفسدينَ والمرابطينَ الجهلة بعض شيوخ الطرق الصوفية الضالة المدجّلين بكل الوسائل لتكون العامة في قبضتهم، يفسدون عقيدتها الدينية، ويحدون لها طُرق الضلال والجهل والجمود والخمول لتستمر فيها، فتكون للمستعمر وجبة هادئة

سائغة ينهشها كما يريد ويعيث فيها كما يشاء، وكان الجهلة المدجّلون الذين يتظاهرون بالتصوف أكبر أعوان الاستعمار على الجزائر، وهم الذين حاربوا المصلحين وكانوا عليهم ناراً، وكانوا يُغرون العامة الجاهلة بالمصلحين ويقولون: "إنهم أعداء الدين، مبتدعون، تجب محاربتهم والقضاء عليهم، وأنَّ الدين والإصلاح والسعادة هو ما نحن عليه..."؛ فتصدقهم العامة فتنظر بالمقت والعداء الشديد للعلماء المصلحين، وقد تهجم عليهم لاغتيالهم كما وقع للشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ بيُّوض، والشيخ مبارك الميلي، والطيب العقبي... ولأعلام الإصلاح كلهم في الجزائر[5].

ومن أخطر ما جابهته الحركة الإصلاحية في مسيرتها المباركة الأمراض التي عطّلت العقل وشلّته عن الفكر القويم والمنهج السليم؛ وفتكت بعرى المجتمع الجزائري دهراً طويلاً؛ إنها: الطريقة الاستعمارية، والفساد الخلقي، والعصبية المذهبية، واستيلاء الجهل والجمود، وبثّ الإلحاد والتفرنج بمدارس الاستعمار وصحافته، ومحاربة اللغة العربية واحتقارها؛ لذلك كان جهاد النخبة الإصلاحية في الجزائر مرتكزاً على محاربة هذه الآفات لما سببته من انحراف كبير في المجتمع، وقد تطلّب مشوار الإصلاح وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، لأنَّ البلاء على الدين والجزائر امتد دهراً طويلاً، أفسد فيه المستعمر وأذنابه العقائد ونشر المفاسد، وفرّق الأمة، وحارب الإصلاح، وتحالف مع المنحرفين وحماهم لأنهم كانوا أدواته وجنوده.

أمَّا **وباء الطرقية الاستعمارية**[6] فقد استفحل بسبب الجهل الذي ضرب أطنابه، وكان العامة يعتقدون في شيوخ الطرق الاستعمارية ما يُنافي التوحيد ويُنابذ الإسلام، فكانوا يعتقدون بأنه لابد لكلِّ من امرئٍ من شيخٍ يتَّبِعُه ويَنتَسِبُ إليه ليشفع له في الآخرة، ويغفر له كل ذنوبه في الدنيا، ويهبه

السعادة والهناء وكل ما يريده في الحياة، وأنَّ السعادة في الدنيا والآخرة بيد الشيخ، فرضاه يفتح أبوابها، وسخطه يسلّط عليه المصائب والشقاء...؛ وتجد لهم أتباعاً كُثر رغم ما يجاهرون به من المعاصي والموبقات كشرب الخمر التي يصورونها لأتباعهم أنها تصير عسلاً مصفى لَمَّا تدخل الفم والجوف... وكان العامة يعتقدون بأن الفرد منهم يستطيع أن يأتي ما شاء من المعاصي والذنوب كالزنا والسرقة وشرب الخمر... إلى غير ذلك من الكبائر والمحرمات؛ ثم يقرّب في كل عامٍ إلى شيخ الزاوية قرباناً يرضاه منه فيغفر له ذنوبه وجرائمه؛ قائلاً له: "اذهب لقد غفرت لك، إنَّ الجنة لك مفتَّحة الأبواب تدخلها بدون حساب، وسعادة الدنيا لك أيضاً ستنهال عليك..."[7]؛ وبهذه الأفكار الضّالة استفحل الشّرّ وقوي الفساد لاعتقاد العامة بأنَّ الجنة والنار بيد شيخ طريقته، وأنه بقليل من القربان يقدمه بين يديه وهدية ميسورة يرضى عنه ويغفر له زلاّته...؛ فانتشر الظلم والبغي والفساد، وكثر الزنا، وتعاطي الخمور، وانتشرت جرائم الظلم والعدوان، وتنادى الناس بالعصبية الجاهلية المذهبيّة، والجنسية والجهوية والطبقيّة، صار القويّ يأكل الضعيف، والقروي يكره المدني، والعربي يكره الأمازيغي، وأهل الشمال يكرهون أهل الجنوب... إلخ؛ كل ذلك مردّه الطرقيون الضالون الذين كانوا عوناً للمستعمر على أبناء جلدتهم من الجزائريين؛ وقديماً قالوا: يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدوّ بعدوّه.

وممن رابط في محاربة تلك البدع والضلالات شيوخ وعلماء الجزائر المصلحين، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس "رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" (1931 - 1940) وقد كتب سلسلة مطولة من المقالات الفاضحة لانحرافات أولئك الضّالين المضلِّين، نشرها في جريدتيه

"الشهاب" و"المنتقد"، بيّن فيها مخالفتها للدين وأضرارها على المسلمين، وفعل غيره كذلك معظم أقطاب جمعية العلماء المسلمين غيرة على الدين القويم وتطهيراً لرسالة التوحيد من الضلالات.

الفساد الخلقي:

وكان من أسبابه أن المستعمر أغلق أبواب الكسب الكبيرة في وجوه الجزائريين وخصّ بها أبناءه مع المعمّرين، وترك الشباب الجزائري للخصاصة والبطالة، وفتح لهم أبواب الفساد الخلقي ودفعهم إليها دفعاً بكلّ وسائله، ففتح الاستعمار الفرنسي دور السينما وجلب إليها الأفلام الساقطة الخليعة ورخّص فتح الحانات والمواخير الليلة...؛ فسقطت في تلك المهاوي فئة كبيرة من الشاب خاصة القادمين من الأرياف والقرى البعيدة إلى المدن الكبرى حيث الموانئ والمصانع، فتجدهم حيارى أين يمضون أوقات فراغهم الطويل وعطل نهاية الأسبوع...؛ فغصَّت بهم الحانات ومحلات القمار حيث يقتل فيها العاطلون أوقاتهم، وانتشر الزنا وكثرت الجرائم والفتن... مع خلوّ النفس من الدين القويم.

العصبيّة المذهبية:

كان الاستعمار يُذكي العداوة والبغضاء بين الجزائريين ويمزّقهم إلى طوائف تتناحر، فاتجهت عداوتهم إلى بعضهم البعض وغفلوا عن عدوّهم الأكبر الذي يؤجّج عليهم الفتن ويعمل صباح مساء من أجل محقِهِم ومحقِ دينهم وهويَّتهم.

وقد كان في الجزائر مذاهب إسلامية ثلاثة الإباضية والمالكية والحنفية، ولكلِّ مذهبٍ أتباعه وشيعتُهُ وهم يرجعون إلى الكتاب والسنّة، فأصولهم واحدة لا فرق بينهم إلاَّ في بعض المسائل الفرعية التي تعددت فيها أقوال

العلماء، وهذا الخلاف البسيط لا يُسبّب العداوة، ولكن السياسة القديمة المفرِّقة، وهوى الملوك وطغيانهم في القديم، أوجدت هذه الوراثة الخبيثة في نفوس أهل المذاهب، فتفطَّن لها المستعمر فأذكاها وضاعفها، واستعان في ذلك بمشايخ الطرق الفاسدين المتعصّبين في إذكاء نار العداوة المذهبية، وبثّها في النفوس، فجعلوا الدين سبباً للفُرقة والتناحر والتباغض[8]؛ ولا يزال أثر من هذه العداوة المذهبية يطفوا على السطح بين الحين والآخر، يُذكي نيرانه الحاقدون على وحدة الأمة الإسلامية في كلِّ مكان، وقد يكون ذلك بواسطة الجهلاء والدهماء من أبناء العربية أنفسهم.

استيلاء الجهل والجمود:

كان الجهل والجمود يستوليان على أغلب العامة، فالدِّين عندهم هو خزعبلات هؤلاء الطُّرقيين، وكان الطرقيون الاستعماريون يريدون أن تظَلَّ العامَّة جاهلةً مُقفلة العقول جامدةً لتظلَّ من أتباعهم لا تنفضُّ عنهم، وكانوا يزيّنون لها الخمول والجمود، ويكرِّهون إليها أسباب النهضة والتعليم العصري المفيد، فكرَّهت إليهم التعليم العصري الذي دعت إليهم الحركة الإصلاحية، فاقتصروا على الكتاتيب القاصرة التي تُديرها الكثير من هذه الطرق، فتملأ النفوس بالجمود والخمول، وتنشئ التلاميذ على تقديس شيخ الطريقة لا على خوف الله وتعظيمه، وعلى التمسُّك بالطريقة المنحرفة لا على التمسّك بالدين القويم، وبحفظ الأناشيد التي تمجّد شيخ الطريقة وأصحابها، لا بحفظ القرآن والحديث وتفسير القرآن والعلوم النافعة، فانصرف الناس بذلك عن العلم الصحيح، وكثرت بذلك الجهالة وآفاتها[9].

بثُّ الإلحاد والتفرنج بمدارس الاستعمار:

كان الاستعمار يُغري المسلمين بغشيان مدارسه في الطفولة قبل أن يُحصَّنوا بالدِّين وتُغرس فيهم العقيدة الإسلامية، ويعرفوا حقيقة الإسلام، وقد دخل في المدارس الفرنسية جماعةٌ من أطفال المسلمين فصبغهم بفكره الإلحادي، وأوحى إليهم ما يُريد، فكان يلفت نظرهم إلى خرافات الطرقيّين وفسادهم وجمودهم، ويجعلهم مظهراً للإسلام ويقول لهم: "إنما كانوا كذلك بالإسلام"، ويُريهم تقدُّم الأوربيين وغناهم وعلمهم، فيقول لهم: "إنما كانوا كذلك لأنهم لا يتقيّدون بالإسلام الذي يورث الخمول ويمنع من النهوض والتقدّم".

وكان هؤلاء الأغرار الصغار لخلوّهم من ثقافة الدين، وجهلهم بالعربية، وثقتهم بأساتذتهم وإعجابهم بهم يصدِّقون هذه الدِّعاية ضد الإسلام فرأوه في مشايخ الطرق والزوايا الفاسدة حِلقاً للذِّكر والترنُّحِ، ورأوه في مجتمعهم المريض في العامة رمزاً للفساد والخمول تغرقُ في الموبقات، فنشأت طائفة منهم على بُغضِ الإسلام والعربية، فخلق الاستعمار للإسلام عدوّاً جديداً من أبناء الجزائر يُناهض بهم العربية، ويسعى بهم للقضاء على الإسلام في الجزائر[10].

محاربة اللغة العربية واحتقارها:

بسط الاستعمار الفرنسي في اللغة العربية لغة القرآن الكريم فوصفها بالعجز والقصور، وبالجمود والجفاء والصعوبة، وأنها لا تليق للحضارة الحديثة ولا تتسع للعلوم العصرية، وأنها خالية من سلاسة الفرنسية وحلاوتها وسهولتها في النطق والتعلُّم، فأنشأت طائفة من الجزائريين ينظرون إلى دينهم الإسلامي ولغتهم العربية وإلى حضارتهم الإسلامية كلها بنظرة الاستعمار العدوَّة، ففرحت بهم فرنسا وجعلتهم أظفارها ومُداها على الجزائر

التي أوهنتها الشيخوخة والأمراض الخُلقية التي ذكرنا، وسُرّ المستعمرون الغُلاة بوهن الجزائر وظلامها، وظنوا أنهم بالغون فيها كلَّ أغراضهم، وهي محقُ الإسلام والمسلمين[11].

ومن الأمثلة الكثيرة لذلك نسوق هذه الواقعة التاريخية؛ إذ أنه لما أغلق الاستعمار العسكري الفرنسي سنة 1945م مدرسة "تهذيب البنين" التي كانت قد أنشأتها الجمعية الخيرية الإصلاحية في مدينة تِبسّة (شمال شرق الجزائر) سنة 1931م، وكان يديرها ويُعلِّم فيها الشيخ العربي التبسي _رحمه الله_ وقد نفاه الاستعمار إلى عين الصفراء (جنوب غرب صحراء الجزائر) سنة 1945م؛ ذهب إلى الحاكم العسكري الفرنسي في تِبسَّة ويسمى (باتيستيني) وهو من جزيرة كورسيكا، فظٌّ غليظٌ شديد العداوة للإسلام والإصلاح، ذهب إليه رئيس الجمعية ونائبه فسألاه أن يأذن لهم في فتح المدرسة فقال لهما الحكام: "ماذا تفعلون فيها؟" فقالا: "نعلِّم فيها القرآن فحسب"؛ فقال لهما الحاكم: "لقد جئنا إلى الجزائر لدفنِ القرآنِ لا لِيحياَ"[12]؛ وهذا هو المقصد الدفين لكلِّ المستعمرين في احتلالهم لبلدان المغرب الكبير والعالم الإسلامي، أنطق الله به هذا الجاهل المستبدّ المغرور.

وقد رفع لواء الإصلاح عالياً في الجزائر أبنائها الأبرار على قلّتهم آنئذٍ لكن نيتهم الصادقة وعملهم الخالص لوجه الله تعالى، هيأ لهم الأسباب فدفعوا بها إلى اليقظة والنهضة بإصلاح النفوس والعقول، وكان القرآن رائدهم ودليلهم في هذا المضمار، ولما أراد المستعمر إحياء الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر في سنة 1930م، مبتهجاً بِمُضيّ قرنٍ كاملٍ من الزمان على إذلاله للإسلام والمسلمين، ومن ذلك أنَّ أحد القساوسة أعلن من على منبر "جامع كتشاوة" الكبير بالعاصمة الجزائر والذي صيّره الاستعمار كاتدرائية كبرى كما

فعل بغيره من المساجد بمدن الجزائر شرقاً وغرباً؛ قائلاً: "يحق لنا اليوم أن نقيم صلاة الجنازة على الإسلام في الجزائر ونحن نحيي الذكرى المئوية لتنصير هذه الأرض..."؛ وقد كانت الإدارة الفرنسية عازمة على إحياء حفلاتٍ وأعيادٍ تمتد ستة أشهر كاملة بعاصمة الجزائر والحواضر الكبرى المجاورة لها شرقاً وغرباً، غير أنَّ علماء الجزائر المصلحون طالعوا الإدارة الفرنسية بإعلان إنشاء جمعيتهم الفتية "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" في الخامس من مايو سنة 1931م، إيذاناً منهم للإدارة الاستعمارية ببزوغ فجرٍ جديدٍ على الجزائر؛ مشرقٍ بالقرآن وإصلاح النفوس والعقول، ومعالجة الآفات الاجتماعية...

وكان من الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية المباركة الشيخ إبراهيم بن عمر بيُّوض رائد الحركة الإصلاحية بالقرارة والجنوب الجزائري؛ فمن هو هذا العلم الجليل وما هي أدواره في الإصلاح ونهضة الجزائر الحديثة.

3- الشيخ إبراهيم بن عمر بَيُّوض الجزائري مصلحاً ومربّياً

ولد الشيخ إبراهيم بن عمر بيُّوض في 11 ذي الحجة 1318هـ الموافق لـ 21 إبريل 1899م، بمدينة القرارة، محافظة غرداية، جنوب الجزائر، عرف منذ صباه بالنبوغ والذكاء والحافظة وذلاقة اللسان.

استظهر كتاب الله تعالى سنة 1911 وعمره 12 سنة.

في سنة 1921 توفي شيخه وأستاذه ومنشئه ومربّيه الشيخ الحاج عمر بن يحيى؛ فخلفه في رفع راية العِلم بمدرسته.

في سنة 1922 التحق عضواً بحلقة "العزَّابة"[13] وهي الهيئة الدينية العليا التي تنظر في شؤون الناس العامة.

في سنة 1924 عيّن شيخاً للوعظ والتدريس بالمسجد الكبير بالقرارة.

في سنة 1925 أسَّس معهد الحياة الثانوي لتعليم العلوم الشرعية والعربية.

في سنة 1931 شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان عضواً بارزاً في إدارتها.

في سنة 1937 أسَّس جمعية الحياة التي تبنت الحركة العلمية والثقافية والتربوية في القرارة.

في سنة 1940 عُيِّن رئيساً لمجلس "حلقة العزَّابة" بالقرارة.

من سنة 1941 إلى 1944 فُرضت عليه الإقامة الجبرية بالقرارة من طرف الاستعمار الفرنسي.

في سنة 1948 وسنة 1951 انتخب نائباً لدائرة غرداية في المجلس الجزائري بالعاصمة الجزائر.

خلال الثورة التحريرية المظفرة 1954 – 1962 شارك في تنظيم الخلايا الثورية بالقرارة وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمؤن والملابس... في نواحي الصحراء المجاورة للقرارة وعموم وادي ميزاب، وكان له الدور الفعَّال في إحباط مؤامرة فصل الصحراء عن الشمال لما اشتدّ سعير الثورة المظفرة وأيقنت فرنسا أن الاستقلال آتٍ لا محالة، فراودت الشيخ بيُّوض مراراً بالترغيب والترهيب من أجل ذلك لكنه أبى ورفض؛ كما أبلى بلاءً حسناً في محاربة التجنيد الإجباري الذي فرضته فرنسا الاستعمارية على الجزائريين جبراً منذ سنة 1912 ولم يسقط هذا القانون الجائر إلاَّ غداة اندلاع التحريرية المظفرة.

في مارس 1962 عُيِّن وزيراً للتربية في اللجنة التنفيذية المؤقتة غداة استقلال الجزائر.

من ثمار جهاده في حقل الإصلاح: إنشاء أجيالٍ من الرجال الصالحين العاملين الذين انبثوا في مختلف ربوع القطر الجزائري، يشغلون مختلف الميادين ويسهمون في بناء الجزائر المستقلة.

ومن تراثه: تفسير مسجّل لنصف القرآن الكريم، فتاوى مطبوعة، أجوبة ومراسلات مخطوطة، المئات من الدروس المسجلة لمناسبات مختلفة دينية واجتماعية وتعليمية ووطنية ودولية...

وشرحاً لكتبٍ كثيرة في مختلف فنون العلم منها: أسانيد في علم الحديث وكتب الأحكام والعقائد ودلائل الإعجاز في البلاغة العربية وكتاب الأمالي في الأدب، وكتباً في علم المنطق؛ انتهاء بتفسير القرآن الكريم بعد أن تمكن من شتى العلوم.

توفي _رحمه الله_ مساء الإربعاء 8 ربيع الأول 1401هـ/ 14 يناير 1981م عن عُمر يناهز 83 سنة قمرية[14].

وقد شارك الشيخ بيُّوض في أعمال الصحافة العربية بالجزائر خلال الثلاثينيات من القرن الماضي؛ وكان أسلوبه فيها أسلوب زملائه أعلام الإصلاح في الجزائر في الكتابة، سيما منهم: الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ إبراهيم أبو اليقظان[15]، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العُقبي، والشيخ مبارك الميلي، وغيرهم من علماء الجزائر الأعلام، يمتاز أسلوبهم جميعاً بالمتانة والسلاسة والعذوبة والوضوح وغزارة المعاني، تفهمه العامة وتتأثر به، وقد تأثر هؤلاء الأعلام بأشياء واحدة سبقت إلى نفوسهم فكونت أساليبهم البارعة القوية العذبة في الكتابة، وأول تلك المؤثرات وأبرزها على الإطلاق "القرآن الكريم"، فهم جميعاً من حُفَّاظه الحفظ الراسخ الجيد في

عهد الطفولة، ومن مُفسِّريه في عهد الشبيبة والكهولة، يستشهدون به في خطبهم ومقالاتهم[16].

3- منهج الشيخ إبراهيم بن عمر بَيُّوض في تفسير معاني القرآن العظيم

ابتدأ الشيخ بيُّوض درس التفسير بمسجد القرارة[17]، وقد اختار له المسجد لأنَّ عامة الناس تحضر إليه للصلاة، وكان قد فسّره مدّة في معهد شيخه ثم نقل إلى الدرس من حلقة تلاميذه في المعهد إلى عامة الناس بالمسجد؛ حتى لا يحرم من درس التفسير أحداً؛ وقد عُرف الشيخ بيُّوض بفصاحته النادرة، وذكائه الوقاد، وطبعه الأدبي، وسعة علمه في العربية والشريعة، ومعرفته بالمجتمع وأمراضه، وبالنفس البشرية وخصائصها، كان بهذه القوى وبهذه الأدوات مستعداً كل الاستعداد لتفسير كتاب الله العزيز.

ويذكر الأستاذ المؤرخ محمد علي دبوز، وهو من أنجب تلاميذ الشيخ بيُّوض وألصقهم به، تاريخ انطلاق دروس التفسير بمسجد القرارة العامر قائلا: "ابتدأ دروس التفسير في صيف سنة 1354هـ/1935م، فابتهج معهده كل الابتهاج وأسرع التلاميذ إلى المسجد قبل صلاة الظهر بكثير ليحتلوا مجالسهم الدائمة في حلقة الشيخ"[18]، أما توقيت الدروس فقد كان في أول الأمر بين الظهر والعصر، وكان الزمان صيفاً، ورغم الحرارة الشديدة في قيلولة القرارة المحرقة، رغم ذلك السعير المتّقد يمتلئ مسجد القرارة بالعامة، وكانوا لا يشعرون بالوقت الطويل الذي يستغرقه الدرس، وبالحرّ الشديد في مكانه لانتشائهم بالتفسير وسماعهم لكتاب الله باللغة التي يفهمون.

وكانت دروس الشيخ بيُّوض في تفسير كتاب الله باللغة العربية الفصحى السهلة، وباللسان الصحراوي الدَّارج المنمَّق، وقد يمزجها ويرصِّعها بقليلٍ من البربرية (الأمازيغية) المحلية؛ ليفهمه النساء والعامة التي لا تعرف الفُصحى، وقد كان مصلى النساء المتصل بالمسجد يغصّ بهنّ، وكنّ يتسابقن لاحتلال مجالسهن قبل اكتظاظه[19].

وكان الشيخ يتقيّد بنظام المسجد في دروسه العامة، فيقع الدرس في الصيف بين الظهر والعصر، وفي الشتاء والربيع بعد صلاة الفجر، أما في آخر الربيع إذا قصرت الليالي وكثرت أشغال الفلاّحين وفيه تغرس خضروات وفواكه الصيف ويشتد التعهد بالنخيل حتى تؤتي ثمارها، وكذلك في أول الخريف وهو موسم جني التمور؛ فإنَّ دروس المسجد تتوقف نحو شهرٍ في آخر الربيع ونحو شهرين في أول الخريف، وبعد استقلال البلاد وإلى السبعينيات صار درس التفسير بعد صلاة العشاء في كل الفصول، وهو الوقت الذي يليق بالتلاميذ والعامة، وجوُّهُ أبعثُ للنشاط في كلِّ الفصول[20].

أبناء القرآن الكريم:

من الأسباب الجليلة لنجاح النهضة الإصلاحية بالجزائر إبَّان الحقبة الاستعمارية خلال القرن العشرين؛ كون قادة الأئمة الجزائرية آنئذٍ من أبناء القرآن الكريم، فقد نشئوا في زمن يقدِّس القرآن التقديس الواجب، ويعرفُ حقيقة القرآن وما يشتمل عليه من نِعمٍ عظيمة لا تُحصى للمرء والمجتمع في كلِّ النواحي، وكانوا لحرصهم على فهم القرآن يجدّون كلَّ الجدِّ في تحصيل العلوم النافعة أهمها أنها أدوات لهم في فهم القرآن الكريم والنفاذ إلى أسراره.

وكانوا لتدبّرهم للقرآن يعرفون أنه أصل كل العلوم الضرورية لسعادة الفرد والمجتمع، وأنه أساس نهضتهم التي يبلغون بها كل غاياتهم الكبرى، وأنّ المسلمين ما ضعُفُوا وأصبحوا حثالةً تخوض فيها أوربا بنعالها، وبضاعةً رخيصةً تبيعها وتشتريها، إلاَّ لَمَّا أدبروا عن القرآن وجعلوه وراء ظهورهم، فساقهم إلى النار؛ وأنَّ الله لا يرضى عنهم؛ فتعاودهم العزة والسعادة والمجد وخير الدّارين إلاَّ إذا حملوه في صدورهم من شدّة حفظه وتدبّره والتعلق به، وكان سواد عيونهم من شدّة إعزازه وإتباعه واستهدائه، فيرون صراط الله الذي يوصلهم إلى سعادة الدَّارين.

وكان المجتمع لا يحترم من العلماء إلاَّ الدعاة المصلحين يُجلّهم ويوقّرهم وبخاصة الذين يحفظون القرآن، ولا يثق عامة الناس إلاّ بحفظة القرآن، ولا يصغون بقلوبهم في الوعظ والخطابة فتتأثر نفوسهم إلاَّ لمن ينبع كلامه من كتاب الله العظيم، فيؤيد معانيه بآيِّ القرآن العظيم، وكانوا يحتقرون من لا يحفظ القرآن الكريم من الخطباء، ويشعرون بكلامه غثاً بارداً مُظلماً لأنه لا يُشرقُ بالقرآن ولا يمتلئ بحرارة الدين التي تفتح القلوب.

وكان المثل الأعلى لكل الأسر في ذلك الزمان أن يكون أبناؤهم من حُفَّاظ القرآن الكريم ومن حُماة الإسلام، وكانت العامة إذا أرادت تصديق الناس لَها في حِلفها حَلَفَت بالقرآن العظيم، لأنَّ القرآن مقدّسٌ مُهاب الجانب في ذلك المجتمع لا يحلف به الناس كاذبين، وإذا وُلد لأحدهم ابنٌ أسرع الناس إليه يهنئونه بالقول: "مبروك الطَّالَبْ"[21]؛ ويقصدون طالِبَ العلوم الدينية وفي مقدمتها القرآن الكريم، وتعني لفظة "الطَّالَبْ" أيضا بالعامية الجزائرية معلِّمُ القرآن للصبية بالمسجد؛ والمجتمع المحلي يفزع إلى القرآن العظيم في أحزانه وأفراحه جميعها؛ ففي المآتم يفزعون إلى القرآن يعمرون بيوتهم به فيتعزّون

بآياته، وبها يفتتحون أعراسهم تيمُّناً به، ويرقون به المرضى، ويحنّكون به المواليد الجدد فيكون أول طعام يتلذذ به يسري في نفس الوليد يعطّرها بالقرآن العظيم يسري إلى أرواحهم، فنشأ أبناؤهم على مثل حبّهم للقرآن وشدة حماسهم له، فكثر حفّاظ القرآن الكريم في المدن والقرى الجزائرية، وصار حِفظُ القرآن واستظهاره كله شرطاً في أغلب معاهد ذلك الزمان المبارك الخيِّر للبدء في دراسة العلوم.

ولما عرف المستعمر الفرنسي خطر علماء الجزائر المصلحين صار يضيّق عليهم متى استطاع ذلك، بأن ينفيهم إلى الأرياف البعيدة أو يضعهم في السجون بتُهمٍ ملفّقةٍ يعتقلهم على إثرِها، فلم يزدهم الاعتقال إلاَّ قوّة وصموداً وابتساماً للحياة؛ لأنَّ السجن بظُلمته ووحشته وأهواله لم يستطع النفاذ إلى قلوبهم المملوءة بنور الإيمان، وإلى أرواحهم التي تعانق القرآن، ولولا القرآن الذي يصاحبهم في السجون لبلغ الاستعمار فيهم أغراضه، فتخبو جذوة حماسهم للإصلاح ومجابهة دسائس المستعمر وأفاعيله في مجتمعهم الذي يلتفت إليهم؛ ولو ذهبنا نستقصي النماذج الخالدة في هذا المضمار لضاق بنا المقام، وليس ذلك من صلب موضوع بحثنا هذا.

طريقة الشيخ بيُّوض في التفسير:

كان للشيخ بيُّوض درسان عامان في كلّ يومٍ وليلة في المسجد؛ ما عدا ليلة الجمعة ويوم الجمعة فلا دروس فيهما[22]؛ وأوقات الدروس هي الأوقات التي تقع فيها الدروس العامة في مساجد ميزاب، إنه نظام قديم في مساجد ميزاب التي لا تخلو من الوعظ والإرشاد، فتلاوة القرآن الجماعية، ودرس الوعظ واجبٌ يومي على "العزَّابة" في المسجد، وعلى الطلبة "إِروَان" أي "حُفَّاظ القرآن"، والوقت المقرر لدروس الوعظ في مساجد ميزاب قد روعي

فيه نشاط السامعين وفراغهم من الأعمال، ولأنَّ أغلب المزابيين في القديم فلاّحون، فقد جُعل درس المسجد في الأوقات التي يستطيعون فيها حضوره، وهذا هو نظامه: من آخر الخريف في شهر نوفمبر إلى وسط الربيع في الأسبوع الأول من إبريل بعد صلاة الفجر؛ ومن إبريل إلى نوفمبر يقع الدرس بين الظهر والعصر؛ هذه هي أوقات درس الوعظ في مساجد ميزاب، وهي أوقات درس الشيخ بيُّوض اليومي الأول، ويزيد درساً ثانياً يومياً بعد صلاة العِشاء، فدام على هذا النظام نحو عشرين عاماً، وبعد استقلال الجزائر وتقدم الشيخ في السِّن اقتصر في الوعظ على درس التفسير العظيم الذي اختار له بعد صلاة العشاء مباشرة لسع الوقت فيه، ونشاط السامعين، وفراغهم من أعمالهم[23].

لم يفسّر الشيخ بيُّوض القرآن الكريم تقليداً للعلماء أو مباهاةً للناس، ولكن قصد بتفسيره إصلاح المجتمع، وتهذيب الأخلاق، وتقوية الإيمان، وتطهير العقيدة، وتثقيف العقول، وإفادة الناس بما في القرآن من شريعة وأدب وفلسفة وغير ذلك من كنوز، لهذا تجده يتحمَّس كلَّ التحمُّسِ لهذا الدرس فيعدُّه أحسن إعدادٍ من أحسن المراجع، ويُلقيه أحسن إلقاءٍ، ويستعمل فيه ذكاءه الوقَّاد كل الاستعمال فيستخرج من أسرار القرآن المعاني المتجددة.

وهو يتبع في التفسير أحسن الطرق التي تجعل فيه خطواته منطقية، والجمهور يتابعه ويفهمه، فأول ما يبدأ به في الآية الكريمة بيان لغتها، ثم يذكر أسباب نزولها وتاريخ النزول، ثم يشرح الآية شرحاً مجملاً، ثم يعكف عليها فيفصّل القول فيها تفصيلاً، وينظر إليها من كلِّ جهاتها، فيستخرج معانيها الدقيقة ويُبيّن أحكامها الشّرعية إن كانت، فيوقف العامة وتلاميذه

الملتفِّين من حوله على أسرار تلك الأحكام فيزدادون علماً بدينهم من مصدره العظيم الأول، ويشرح مواعظ القرآن وقصصه التهذيبية التاريخية ويبيّن الفلسفة القرآنية للناس، ويُلفت نظر التلاميذ إلى النكت البلاغية، وإلى الجمال الأدبي في أسلوب القرآن، ينظُر إلى الآية من جميع وجوهها، فيستخرج منها ما يستطيعه الغواص الماهر.

وكان الشيخ بيُّوض يتدفّق في دروسه لا يتوقف ولا يتعثر لقوة فصاحته وإعداده أحسن إعدادٍ لدروسه، وكان لا ينظُر في كتابٍ ولا يقطع درسه لينقُل من صفحته، بل يأتي بالدرس كله في رأسه، فيلقيه بأسلوب خطابيّ قويٍ بديعٍ، يُحسُّ فيه المستمع بحرارة وجدان الشيخ وقوته، واهتمامه بما يقول[24].

وكان يفسّر القرآن على أنه خطاب الله للجماهير؛ فهو يُعنيهم به، فتكون لهجته خطابية حارة، فتُصغي إليه نفوس الحاضرين، وتخشع القلوب أمامه، فترى السكون سائداً في المسجد المكتظ لتأثر الناس بالدرس وحسن استماعهم إليه، فقسمُ الرجال ممتلئٌ بهم وقسمُ النساء كذلك، فلا تسمع حركة في القسمين، وكأنَّ المسجد ليس فيه إلاَّ الشيخ الذي يُجلجل صوته الرخيم القوي في جنبات المسجد.

وبعد أن ينتهي الشيخ من تفسير الآية يعرض المجتمع عليها، فيبيّن أمراضه وما يُخالف القرآن فيه من البدع ومساوئ الأخلاق، ومن الإلحاد الذي ينشره المستعمرون وأذنابهم من خرّيجي مدارسهم، فيهجم على الفساد فيدحضه بالقرآن ويعمدُ إلى النفوس فيغسلها من أوضارها بنور الله، وقلّما تَخلوا آيةٌ دون أن يعرض المجتمع عليها والعصر ما يأتي به، فيبيّن ما فيها من فسادٍ واعوجاجٍ؛ إنَّ غرض الشيخ من التفسير هو مراد الله من كتابه: "إصلاحُ

النفوس، وتثقيف العقول وتنظيم المجتمع، ونشر أخلاق الإصلاح الصحيحة في المسلمين"[25].

والشيخ يعتقد ما قرره الشيخ محمد عبده أنَّ القرآن يفسّره القرآن، ومن لم يحفظ كتاب الله، ويعرف معانيه لا يستطيع أن يفسّره، وكان في تفسير آية تحضره الآيات الكثيرة في موضوعها فينتفع بها في تفسيرها وتتوضح بها معانيها ويظهر المقصود، وكان السامع يزدادُ يقيناً بما يقرره الشيخ في تفسير الآية؛ لأنه يستدلُّ للآية بما يحضُرهُ من الآيات الكثيرة، إنه لولا حفظه للقرآن كلّه وتدبّره الدائم له، ما عرف معانيه، وما تداعت آياته في نفسه فيتذكّر الآيات الكثيرة في موضوع ما يُفسِّره.

أما مراجع الشيخ بيُّوض في التفسير فكثيرة؛ أهمها: "تفسير المنار" للشيخ محمد عبده ورشيد رضا، و"روح المعاني" للآلوسي، و"التفسير الكبير" للرازي، و"تيسير التفسير" و"هِميَان الزاد إلى دار المعاد" للشيخ امحمد بن يوسف أطفيَّش، وكان "تفسير المنار" أحبّ الكتب إلى الشيخ لأنه يوافق طريقته في التفسير، وبما أن القرآن للبشرية كلها وفي كلّ العصور، فهو خطاب الله لهم، فيه حلّ المشاكل البشريّة، والدواء الناجع لأمراضها في كل العصور، فلا يجوز أن ننظر إليه كأثر قديم يخصّ القرون الأولى، فنردّد أصداء المفسّرين وما قالوه عن عصرهم في تفسيرهم، بل يجب أن نعرض عصرنا ومشاكله وأمراضه على القرآن، فنقتبس منه حلول كل المشاكل العصرية ونعرف منه أحسن أنواع العلاج لكل أمراضنا الاجتماعية، وندافع بحُججِهِ إلحادَ الملحدين، وننتفع به في كل نواحي حياتنا كما فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي أحسن فهم القرآن؛ والشيخ بيُّوض يعتقد عقيدة الشيخ محمد عبده وتلاميذه في المشرق والمغرب، بأنَّ العلم قد ترقّى في هذا العصر

فيجب أن ننتفع في تفسير القرآن بما وصل إليه العلم في هذا العصر، وما قرره من القواعد الجديدة، ونستعمل عقولنا متذرِّعين في فهم القرآن بالمعارف التي توصّل إليها هذا العصر، فنأتي بالجديد في التفسير، ونُساير العصر المترقي في العلم والحضارة، ونُبيِّن معجزة القرآن، وأنه كتاب الدهر يليق لكلّ زمان ومكان، هذه هي عقيدة الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا في كلّ ما فسّر من القرآن العظيم، وكان الشيخ بيُّوض حاذقاً ماهراً بصيراً بأمراض عصره، كثيراً ما يتحدَّث في دروسه عن خطر الشيوعية وهيمنة الرأسمالية في العالم، وعن أزمة الأخلاق في الغرب والأخطار المحدقة بالمسلمين ومنها الاختلاط بين الجنسين في الجامعات وأماكن العمل، والتبرج والسفور... إلى غير ذلك كثير.

نماذج من تفسيره ومعالجة الأدواء الاجتماعية

في معرض تفسير فضيلة الشيخ بيُّوض لقوله تعالى: **[وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خسَارًا]** (الإسراء/28)؛ يقول: "فالإنسان لا يُمكن أن يعيش كالبهيمة وحده، لابد أن يعيش في جماعاتٍ متماسكة متواصلة، يكمِّل بعضها بعضا، كل واحدٍ محتاجٍ إلى الآخر، بينهم تفاعلٌ وتعاونٌ...، والناس لَمَّا تعاشروا اختلفوا في أصول الأخلاق التي يتعاملون عليها، فرأى بعضهم غير ما يرى الآخر، حتى لا يكادون يتفقون على خُلقٍ من الأخلاق، وإن اتفقوا على اسمه فإنهم لا يتفقون على مدلوله وحدوه...، ويتقوى الخلاف ويزداد إلى درجة أن يعتبر أحدهم الحياء أن يلبس أحدٌ لباساً يليق بكرامته وشرفه، ويَستُر من جسمه ما يَستُر حتى يظهر بمظهر الكرامة والشرف أمام الناس... بينما الآخر يقول: إن هذه الثياب مُخترعة،

والله قد خلقنا مثل الحيوانات الأخرى وأخرجنا من بطون أمهاتنا عُراةٍ، فيجب أن نعيش على الأرض عُراة... وهذا مذهب العراة الذي اعتنقه الملايين رجالاً ونساءً يعيشون معاً كما ولدتهم أمهاتهم، ويزعمون أنَّ هذه هي الطبيعة وأنَّ هذا هو الحقُّ والصواب، وما رغب الرجال في النساء أو العكس إلاَّ للتستر، ولو انكشفوا لبعضهم لزالت هذه الرغبة، ولما كان هنالك فساد..."[26].

ويضيف موضِّحاً: "وقد أطلت في هذا السياق لأني أريد أن أشخِّص هذا المرض، وكم نستطيع من إحصاء هذا المرض، ولكن لابد من التعرض له لأنَّ المرض اشتد فيه أكثر من غيره، والمرأة هي أكبر مشاكل الإنسان، وهي مشكلة المشاكل التي مرضت الإنسانية بسببها ولا تزال، ولعلها أكبر مرضٍ بعد مرض العقيدة، ما حقيقتها؟ وما واجباتها؟ ما مكانتها في العالم؟ كيف تُعامل؟ هل تُعامل كالرجل سواءً بسواء؟ أو دونه درجة ودرجات؟ أو فوقه درجة ودرجات؟ وفي حالة حملها ووضعها ورضاعها؟ وحالتها في بيتها مع زوجها؟ هل تُعدّ كالرجل، فتحترف كل ما يحترفه الرجل؟ وتترك حرفتها الطبيعية "الأمومة"؟ هل تحتجب وتستر عورتها؟ أم تُسفر حتى تكشف من جسمها ما لا يجوز، وما لا ينبغي حتى للرجل كشفه، كما هو الحال في مختلف أنحاء العالم، يخرج الرجال مستورين ستراً كاملاً ببدلاتهم وسراويلهم بينما تظهر النساء عرايا إلاَّ من بعض الخرق التي تغطي منهن ما بين الأثداء إلى ما فوق الركبة، ولا يزالون يقدمون في هذا الباب؛ هذه هي المشكلة الكبرى والمرض الأكبر..."[27].

ويستطرد المفسّر قائلا: "...وربما يجرنا الحديث فنصل إلى شيء أخبث مما ذكر، وبودّنا أن ننزه المقام عن ذكره، ولكن للأسف هو شيء واقعي مقنّن، إنه "الشذوذ الجنسي" الذي هو جريمة عند جميع الأمم يعاقب عليها القانون،

لأنه مخالفة للطبيعة، لكن جاءت بعض القوانين المتأخرة فنفت أن يكون هذا جريمة، ومن أغرب ما يقع أن يكون هذا بين رجال الكنيسة، كما وقع في إنجلترا، رجال الكنيسة يتنازعون أهل هذا شيء محرم يعاقب عليه القانون أم لا؟ وفيهم كبار رؤساء الديانات قالوا: إن هذا حق طبيعي وفي منعه منعٌ للشهوة، ومن منعتَهُ شهوتَهُ فقد ظلمته !!!...

... وما كنت أظنُّ أن أطيل كل هذا في وصف هذا المرض في العقيدة، وفي الخلق، وفي العمل، وهكذا الأمر لو تُرك للبشر أنفسهم، ولعقولهم القاصرة الضيقة... وبمعونة شياطين الإنس والجن يهلك الإنسان...، **[قُتِلَ الإنسَانُ مَا أكفَرَهُ]** (عبس/17)، ... والله تعالى الرحيم بالإنسان ما كان ليتركه يتخبط في وحلِ هذه الأمراض، فاقتضت حكمته أن يُنزِّل من عنده شفاءً لها، فأنزل هذه الكتب السماوية خاصة القرآن الكريم الذي يدور عليه حديثنا، فكل هذه الأمراض التي يختلف فيها الناس فإنَّ شفاءها في القرآن..."[28].

وفي معرض تفسيره للآية نفسها تشرق له المعاني الكثيرة وهو يعرض الآية والآيات على أمراض المجتمع قصد بيان الوصفة المناسبة فلا يجدها إلاَّ في القرآن، ثم يدعو المستمعين أمامه إلى عرض أنفسهم على القرآن؛ قائلا: "...نعود مرة أخرى إلى كلمة (الشِّفاء)، وقد رأينا التفسير الأول لكلمة شفاء، وهو شفاء لأمراض القلوب ولما في الصدور، ولكن لا يمنع أن يكون القرآن كله شافياً من الأمراض الحسية والبدنية بالرقية... وإنما الذي لا يجوز أن نستشفي به مما لا نفهمُ له معنىً، بكلماتٍ وأسماء للجنِّ والشياطين، وربما هي أسماء آلهةٍ عُبدت من دون الله، أو هي كلمات كفرٍ وشركٍ، هذا الذي لا يجوز، أما بالقرآن فخذ منه ما شئت، وانوِهِ لما شئتَ، واقصد كلمات الشفاء

كهذه الآية: **[وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خسَارًا]** (الإسراء/28)؛ أو قوله: **[فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ]** (النحل/69)، أو اقصد المعوذتين اللَّتين كان النبيء عليه الصلاة والسلام يقرأهما، اقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين، واسألِ الله أن يُشفيك من كلِّ مرضٍ، أو يحفظك منه، فيُعيذَكَ من المرضِ، ومن شرِّ ما خلق، ومن سموم الأفاعي والعقارب، ومن وسواس الجنِّ وخطفتِهِ، ومن كلِّ شيء؛ فالقرآن حقيقةً هو شفاءٌ للصدور وللأجسام، وهو قدح عسلٍ أينما وضعت إصبعك وجدت حلاوة وشفاء، نسأل الله تعالى أن يُشفي صدورنا وأجسامنا بالقرآن"[29].

وعن أهمية العناية بفرض الصلاة والدعوة إليها في البيوت نجد الشيخ بيُّوض يؤكد عليها بالقول: "...ولا يقولن أحدٌ _وله زوجة لا تصلِّي أو ولدٌ لا يُصلِّي_: ما لي وشأنهم؟ بل ولو كان لك خادمٌ لا يصلِّي؛ عليك أن تأمره وتنهاه، لا تقل: إنه مجرَّد خادمٍ يقضي لي ما أحتاجه، ولا يعنيني أمره صلَّى أم لم يصلِّ.

ويحك أكافرٌ في بيتك؟ أيأوي بيتك من تطلُع عليه الشمس وهو لم يصلِّ الفجر؟ أو تغرُب عليه وهو لم يصلِّ الظهر والعصر؟ كلُّ هؤلاء يدخلون في مسؤوليتك، ويدخلون في الأهل الذين عناهم الله تعالى بقوله: [قُو أنفُسَكُم وَأهلِيكُم نَارًا] (التحريم/6)، إنها مسؤولية البيت، الرجل مسؤول على المرأة، والمرأة مسؤولة على الرجل...؛ هذا سرُّ التخصيص في قوله: [وَامُر أهلَكَ بِالصَّلاَةِ] (طه/132)، وإلاَّ فالنبيء عليه السلام كان يذهب إلى عليٍّ وفاطمة عند قرب وقت الصلاة ليوقظهما امتثالاً لهذه الآية، مع علمه بحرصهما على الصلاة، ولنا في عمله عليه السلام أسوة حسنة..."[30].

وفيما يتعلَّقُ بالمعاملات العامة والآداب بين الناس اخترنا هذا المثال؛ عند سورة طه في تفسير قوله تعالى: [قَالَ أَلقِهَا يَا مُوسَى] (طه/19)، "...قد لا يبدو لنا هذا إذا كان النداء فيما بيننا، ولكن إذا كان ملكٍ أو سُلطان، ونادى شخصاً باسمه، فهذا من علامة الرضى والمحبة، يشعر المنادى بلذَّةٍ كبيرة في هذا النداء باسمه، فما بالكم إذا كان المنادي هو الحق تبارك وتعالى، ويتكرَّر النداء مراراً"[31].

ففي هذا الشرح ما يدعو المستمع المؤمن ليتخلق بهذا الخلق العظيم قدر استطاعته فلا ينادي أحداً مجرداً عن اسمه بالقول "يا هذا" أو غيره، بل يناديه باسمه أو بأحبِّ الأسماء إليه إن عرفه؛ ثم يستطردُ الشيخ معقِّباً على الظاهرة موضِّحاً بالقول: "...ومن المعلوم أنه إذا غضب أحدٌ على شخصٍ فإنه لا يُناديه باسمه، وإنما يكتفي بقوله: "يا هذا" أو الإشارة بالأصبع؛ وللمناسبة أذكر قصَّةً وقعت لشيخنا الحاج عمر بن يحيى[32] وذلك أنه دخل مدينة، وبها قائد متكبِّرٌ متجبِّر، فمرَّ عليه الشيخ وهو جالسٌ فسلَّم عليه ولكنه لم يسمع سلامه، وإذا بالقائد ينادي على الشيخ "يا حمار! يا حمار!"؛ قال الشيخ: لم أُعر لندائه أذناً، وأنا أعلم أنه يقصدني، ثم بعث لي منادياً يناديني، فلمّا مثلث أمامه، قال لي القائد: لماذا ناديتك ولم تُجبني؟ فقلت: ما ناديتني أبداً، ولكني سمعتك تقول: يا حمار يا حمار؛ فظننتُ أنَّ حماراً بالناحية تناديه، فبَكَتَ وبُهِتَ بهذا الجواب"[33].

في هذه القصة من العبر الشيء الكثير، فالشَّيخ بيُّوض يتحدث أمام طلبته عن خصال شيخه، ويقدم لهم مثالاً حيّاً من واقع بلدتهم، وكيف كان هذا الرجل الفاضل يمتاز بالحلم ورجاحة العقل، فهو بذلك يمدّهم بالزاد الروحي ويشحذ نفوسهم المدد المعنوي الضروري؛ لأنهم يعيشون في خضم

تلك الظروف المشابهة لظروف شيخ شيخهم، وهي فترة الاستعمار الفرنسي حيث كان "قائد البلد" يمثل السلطة في البلدة عاملاً لدى المستعمرين ناراً وحرباً على أبناء بلدته من المصلحين والدعاة يسلّط عليهم في كِبرٍ ومكرٍ السفهاء يسبُّونهم ويهينونهم في الساحات والأسواق وحتى أمام طلبتهم أحياناً كثيرة، فلا يستطيعون الرّد إلاَّ بالتي هي أحسن، وإلاَّ ضاعت جهودهم في إقامة تلك المدرسة بقرار غلقها وتشريد من فيها، إذا بادر من الشيخ أو أخد تلاميذه بردّ فعلٍ تجاه القائد أو أحد أعوانه المتسلِّطين...، وهذه الصور وغيرها كثير في تاريخ الحركة الإصلاحية بالجزائر إبان الفترة الاستعمارية، وفي كتاب نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة فصول طويلة في هذا الشجن، فعد إليها[34].

ولننتقل إلى موضوع آخر وهو تأديب المتعلِّمين وتهذيبهم:

لقد توقف الشيخ بيُّوض _رحمه الله_ عند محطات كثيرة وبديعة في تفسيره لحوار سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، في سورة الكهف، فكان يستنبط منها الفوائد الجمة وينقلها إلى طلاّبه المحلِّقين من حوله؛ إذ سيكون منهم المعلم والمربّي بعد حين، وينبثون في مدارس الإصلاح في قرى ميزاب وكثير من مدن الشمال الجزائري، فلابد لهم من زاد معرفي وأدبي يشحذ هممهم ويصقل مواهبهم ويهذب سلوكهم قبل كل شيء وهو مربط فرس الشيخ ورهانه في معظم دروسه؛ فالمعلم والمربي لابد أن يكون قدوة صالحة لتلاميذه قبل كل شيء؛ وهذا شعار معهد الحياة بالقرارة منذ نشأته سنة 1925م ولا يزال إلى اليوم، وقد كتب على لوحة تزين بهو المعهد من الداخل كُتب عليها "الأخلاق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد".

وانظر إلى تفسير الشيخ حيث يقول: "...هذه كلها حِكمٌ مستنبطةٌ من هذه الآية الكريمة من موقف موسى مع الخضر، في هذا الاستسلام المطلق للخضر، والانقياد لأوامره، وإعطاء الثقة الكاملة في المعلِّم، وهذه الثقة المتبادلة بين المعلِّم والمتعلِّمِ سرُّ النجاح؛ فالمعلِّم يجب أن يقصد الخير وينوي إنارة أفكار طلبته، وعلى المتعلمين أن يعرفوا قيمة ما يتعلمون، وحقيقة جهلهم، وقيمة ومقام من يُعلِّمهم، وأن لا يقنعوا أبداً بما عندهم، وهذا شأن موسى مع معلِّمه الخضر مثالٌ لنا وهو نبيءٌ ورسول أوتي التوراة والعلم الغزير.

ثم إنَّ الخضر قال لموسى: **[إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِي صَبرًا، وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَى مَا لَم تُحِط بِهِ خُبرًا]**؛ في الحقيقة هذه كلمة كبيرة جداً قالها المعلم لتلميذه؛ تُرى ماذا يُستنبطُ مِن هذا؟

مما يُستنبط من هذا أنه على المعلِّم أن لا يترك تلميذه على غُروره، وإذا أعجب أحد التلاميذ بنفسه، واغترَّ بما عندهُ، فإنه يجب عليه في بعض الأوقات أن يجرح كرامته ويلقِّنه كلماتٍ قاسيةٍ تُفيقُهُ وتردُّه إلى صوابه.

فقول الخضر لموسى **[لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرًا]** بلن المؤكِّدة والمؤبِّدة للنفي، ثم قوله: **[وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَى مَا لَم تُحِط بِهِ خُبرًا]**؛ لم يقل الخضِر هذا ازدراءً بموسى أو احتقاراً وإنما لينبِّهَهُ إلى خطر ما هو مُقبلٌ عليه تأديباً له، وهذا ما يتعلَّمه منه؛ فعلى العالم أن يكون كذلك، ولكن ليس مع كلِّ أحدٍ، وإنما في الطباع إعجابٌ بالنفس وغرورٌ لأسبابٍ وهذا نوع من المرض الذي يجب معالجته، وهذه مهمَّة المعلِّم عليه أن يعالجه فيمن ظهر فيه حتى لا يصحبه المرض طول حياته؛ وليست مهمة المعلم حشو الدماغ بالمعلومات

فقط، إنما مهمته الكبرى تهذيب أفكار طالبه وسيرته، وإلاَّ فإنه ينشأ معقداً... ومن أكبر الأمراض التي يُصاب بها المرء الإعجاب والغرور بقيمته أو بعلمه، وهذا لعمري شيءٌ يضرُّ ولا ينفع، ويفرِّقُ ولا يجمَع.

فقول الخضر ومجابهةُ موسى بهذا حقٌّ، ومع هذا فإنَّ موسى ازداد تواضعاً، ولم ينسب إلى نفسه شيئاً، ولم يعجب بما أوتي، وإنما ردَّ الضمير إلى الله تعالى، فقال: **[سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللهُ صَابِرًا]**، ولم يقل: إني صابر؛ فالسِّين في قوله: **[سَتَجِدُنِي]**، وقوله: **[إن شَاءَ اللهُ]**، كلُّ هذا يُظهر مقدار لطف موسى وأدبه مع معلِّمه..." [35].

ترى الشيخ بيُّوض في كل مرة يعرض المجتمع على القرآن يشرّح أمراضه ويعاين أدواءه، ثم يعود بالمستمعين من حوله إلى مائدة القرآن يدعوهم إليها، وكان هذا دأبه _رحمه الله_ في معظم دروسه ومواعظه أمام العامة والخاصة، وربما كان تركيزه أشد على تلاميذه الملتفِّين من حوله في حلقة عِلمٍ كبيرة؛ فهم المعنيون بالدرجة الأولى عنده، ثم عامة الناس من بعدهم، فهم القدوة للعامة إذ سيكون منهم المعلم والمربي بعد حين، لذلك تراه يحرص على تأديبهم وتثقيفهم بأجود ما يكون، وقد ظلَّ ذلك دأبُهُ حتى لقي ربه، وكذلك كان دأبُ أترابه من المفسرين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رحمهم الله وتقبلهم في عباده الصالحين.

وعن بعض الآفات الاجتماعية التي كانت تنخر المجتمع؛ وأبرزها التدخين ومن أخطر أنواعه المخدرات؛ وفي ذلك يقول: "...اعلموا أنَّ الذي يمشي في طريق التدخين قد خطى أول خطوة في طريق المخدرات المهلك، هذا وإنَّ صناعة المخدرات في تطور رهيب، وقد تحدث بعض العلماء في أمريكا منذ

أسابيع عن أخطر مخدر اسمه LSD؛ والمخدرات أخطرُ من كلِّ الكوارث التي قد تصيب الأمم، أخطر من الزلازل والفيضانات الطبيعية المدمرة ومن الأوبئة الفتاكة، إنه ينخر جسم الأمة يدمرها ببطء دماراً شاملاً، لذلك فإنَّ المسؤولية كبيرة على الأولياء في مراقبة أبنائهم، ولينتبهوا إلى الحيل التي يستعملها بعض الأبناء الذين وقعوا في فخ التدخين وغيره من الموبقات، كمضغ أنواع من العِلكة لدفع الروائح عن أفواههم أو تضميخ ملابسهم بالروائح القويّة النفاذة التي يضعونها لتغطية رائحة السجائر أو الخمر، حتى كره بعض الناس تلك الروائح التي يستعملها بعض السِّكرين لتغطية رائحة الخمر، فليتنبه الأولياء لتلك الحيل، ويتدرجوا في استرجاع أولئك الأبناء إلى الجادة، ولابد لهم من الزجر والتهديد والهجران إن اقتضى الأمر ذلك حتى ينيبوا إلى الله، واتقوا الله فقد أعذر من أنذر، والله تعالى يقول: [مَن عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفسِهِ وَمَن أسَاءَ فَعَلَيهَا]..."[36].

4- أثر جهوده الدعوية في تحسّن النظم الاجتماعية بوادي ميزاب (جنوب الجزائر)

كان الشيخ بيُّوض يعتدّ بدرس التفسير، ويرى القرآن أكبر سلاحٍ يُجهز به على خصوم حركته الإصلاحية وعلى أعداء الدين، فهو المنطق الذي تُصغي إليه الجماهير بقلوبها وتؤمن بكلِّ ما فيه وتنقاد إليه، وكان الشيخ يهجم في الدرس على الجامدين خصوم النهضة الإصلاحية فيبيّن بدعهم التي تضرّ الدين، وجمودهم الذي يضرّ المسلمين، وينقضُّ على الاستعمار وأذنابه ويبيّن إلحادهم وعداوتهم للدين، وإضرارهم بالمسلمين، فتراهُمُ العامة على ضوء

القرآن في نكرهم فتنبذهم، وبه انظمّ المترددون إلى زمرة الإصلاح وجماعة المسلمين[37].

وكان أعداء النهضة الإصلاحية بميزاب، وكذا المستعمرون في مختلف أنحاء الجزائر يرون دروس التفسير بارود ينفجر عليهم في أهواله فيجتثُّ أصولهم، ونهاراً ضاحياً يُبيّنُ نكرهم للناس ويكشف دسائسهم للدين والمسلمين، ويجرّ العامة كلّهم إلى حزب النهضة فتخلوا أسواقهم ويتضاءل حزبهم، فلا تبقى في حظيرتهم إلاَّ تلك الدهماء التي يرتبطونها بدعايتهم الكاذبة، وبالتخويف والأطماع، ويجعلون منها جيشهم الذي يُحاربون به نهضة الأمة وتقدّمها؛ لقد كان لدرس التفسير الجدوى العظيمة على "معهد الحياة" بالقرارة وعلى القرارة ووادي ميزاب كله، بل أكبر الجدوى على النهضة كلّها في جنوب الجزائر، فقد انبثّ تلاميذ الشيخ بيُّوض في معظم المعاهد والمدارس ينشئون الأجيال على الصلاح والتقى وما يزال منهم بقية على العهد يرابطون في المساجد يواصلون مسيرة شيخهم في إصلاح النفوس من خلال التفسير؛ ومنهم على الخصوص فضيلة الشيخ سعيد محمد كعباش ببلدة العطف، وقد أوشك على ختم تفسير كتاب الله في حلق الوعظ بجامع البلدة العتيق، وهو يعقد حلقتين لدرس التفسير في الأسبوع أمام العامة في المسجد أما بقية الأيام فيتفرغ فيها لتحضير الدرس والتأليف، وقد أصدر منه 14 جزءاً، سماه "نَفَحَاتُ الرَّحمَن فِي رِيَاضِ القُرآن"؛ ورغم أنَّ فضيلة الشيخ كعباش قد تجاوز الثانية والثمانين من العُمر، وأنهكته المسؤوليات الاجتماعية العظام إلاَّ أنه لا يزال _متعه الله بالصحة والعافية_ يُرابط في تسيير وتوجيه مجلس "العزَّابة" في اجتماعاتهم الدّورية.

لقد ماتت بفضل دروس التفسير بدعٌ كثيرة في القرارة ووادي ميزاب، كانت تشوه الدين وتمنع تقدّم المسلمين، وبه حَيِيت سُننٌ كثيرة من سُنن الإسلام الحسنة، وازدادت القرارة وميزاب صلاحاً، و"معهد الحياة" ثقافة وزكاءً، وحبَّب إلى تلاميذه التدبّر في القرآن العظيم، والغرام بالتفسير الذي يعرفون به أسرار كتاب الله، والشيخ بيُّوض لا يُقلّد غيره في التفسير بل هو يتزوّد لدروسه من أحسن المراجع لكل المذاهب الإسلامية.

5- سبل تفعيل المنهج الإصلاحيّ في معالجة الانحراف الاجتماعي على وفق المنهج القرآني

لقد عاش علماؤنا وقادة نهضتنا في القرآن وللقرآن، فَهُم من حُفَّاظه وحَفَظته ورادِّي سهام المستعمرين والملحدين عنه، والقرآن هو منبِّهُ معارفهم، وأصل تفكيرهم، وهو معيارهم في كلّ الدراسات والمعاملات، فما وافقه رحبوا به، وما خالفه نبذوه واجتثّوه لأنه باطلٌ من عمل الشيطان، هذه هي حقيقتهم، إنَّ معانيهم ليقرؤها الجهلة بالقرآن وبالدين الإسلامي العظيم فيعجبون بها فينسبونها إليهم ويظنون أنها من اختراعهم ونظريات سبقوا إليها تُنسب إليهم، كما نُسبت نظرياتٌ اجتماعية إلى علماء مادِّيين اكتفوا بعقولهم القاصرة، وشهواتهم العارمة في التفكير ولم يستعينوا بنور الله، فجاءوا بقوانين اجتماعية ما زالت البشرية تشقى بها وتموت، فقال هؤلاء الجهلة: إنَّ لعلمائنا فلسفةً خاصةً بهم؛ وأخطئوا لما تصوروا أنّ علمائنا يقتصرون في قولهم وفعلهم فقط على العقل الذي قد تعصف به الغرائز والأهواء، في حين أنَّ الدين الإسلامي هو النبع الذي يستقي منه علماء الأمة الربانيين وأساسه القرآن العظيم؛ وهم ينظرون بنور الله فيتوصلون إلى الحق النافع، ولو كانوا يحكّمون عقولهم وحدها بدون أن يكون لهم أصلٌ

ونور من القرآن لكثرت غلطاتهم فتتعثر نهضتهم الإصلاحية، ويستغلّ المستعمرون والملحدون والطرقيون الضالون[38] تلك الغلطات لتهديمهم وتهديم نهضتها، لقد قادوا الجزائر فأحسنوا القيادة، وبلغوا بها الغايات المثلى لأنهم توجهوا بها إلى دين الله، ورجعوا بها إلى صراط الله المستقيم والحمد لله[39].

وسيظلّ المنهج الإصلاحي الأجدى نفعاً في معالجة الانحراف الاجتماعي وفق المنهج القرآني، يُعرض عليه المجتمع فيبيّن ما يجب إتباعه وما يجب اجتنابه، إذ لا تجد فرداً مسلماً لا يخشع عند سماع آيِّ الذكر الحكيم تُتلى عليه ولا يُصغي لها، فإذا كان أمامه من يفسّر معانيه ويربط بين الآيات والواقع المُعاش، ويقدّم الأدواء للعلل التي يتخبَّط فيها المسلمون ويشقون فيها بفكرهم الضيق ونظرتهم المادية للعالم من حولهم...

6- الخاتمة والتوصيات

لقد درّس الشيخ بيُّوض الطلبة والعوام في مسجد القرارة مختلف الكتب الأدبية والتاريخية وسيرة الرسول الأعظم وأحاديثه الشريفة، ولما تشرّب زبدة المواضيع الدينية والأخلاقية وانتهت إليه ملكة اللغة وانقاد له البيان والتأثير في السامعين، واستأنس من نفسه القوة والمقدرة والتمكن من العلوم الشرعية والقرآنية والعربية التي تؤهله لولوج غمار تفسير كتاب الله العزيز؛ انطلق في تفسير القرآن الكريم ودام فيه مدة خمس وأربعين سنة كاملة من سنة 1345هـ/1935م إلى سنة 1400هـ/1980م، وذلك بعد مسيرة حافلة من العطاء العلمي والجهود الدعوة من على منبر جامع القرارة ومساجد ميزاب

والقطر الوطني الجزائري، فحيث ما حل أو ارتحل إلاَّ وقدّم دروساً في الوعظ والإرشاد واهتمَّ لشؤون المجتمع الجزائري المسلم.

وكان قد مهّد لهذا العمل في بداية الثلاثينيات بتجربة قصيرة شرح فيها سور جزء عمَّ اعتماداً على تفسير الشيخ محمد عبده لهذا الجزء، لأنَّ هذه السور مما يحفظه جمهور الناس، وهي عُمدة صلواتهم، فلابد أن يعرفوا معانيها لتُعينهم على الخشوع في الصلاة وتدبر القرآن الكريم[40].

عند فراغه منها تهاطلت عليه الدعوات من طلبته ومن المشايخ في وادي ميزاب لأجل الشروع في تفسير القرآن الكريم كاملاً بداية من أوله، فشرح الله صدره لهذا الكبير وهذا الجهد العظيم[41].

وقد بيّن الشيخ بيُّوض هدفه من تفسير القرآن الكريم بالقول: "إنَّ غرضي من تفسير القرآن هو تربية الناس بالقرآن، وتثقيفهم، ووعظهم ومعالجة أمراض النفوس كلها بالقرآن، فإنه شفاؤها كلها"[42].

إنَّ الهدف التربوي الاجتماعي هو المقصود من إقدام الشيخ بيُّوض على التفسير، فهو يعتقد أنَّ القرآن الكريم نزل ليكون شفاءً للمسلمين من أسقامهم مما يُعانون به من أمراضٍ اجتماعية مختلفة، وأنَّ جُهد العالم المجتهد الناصح لأمته هو الذي يتولى تشخيص الداء والبحث عن الدواء في صيدلية القرآن الكريم بعد عرض المجتمع عليها[43].

يؤكد الشيخ بيُّوض على أنَّ القرآن الكريم احتوى فعلاً على علاج لكل أمراض الأمة التي قد تصيبها في أخلاقها أو عقيدتها أو سلوكها؛ يقول في هذا: "ما من مرضٍ من أمراض العقائد والأخلاق أو الأعمال إلاَّ في القرآن دواؤه وشفاؤه، دواء رخيص لا ينفد ولا ينضب، ولا يُكلفنا مالاً ولا نُقلاً، إلاَّ أن نقرأه ونتمعن فيه، ونسأل أهل الذكر إن كنّا لا نعلم"[44].

إنَّ الهدف التربوي الذي اختاره الشيخ بيُّوض ووضعه نصب عينيه من دروسه التفسيرية المسجديَّة جعلت منهجه يتَّضح ويتحدَّد من الوهلة الأولى، فهو لم يُرد من تفسيره أن يكون طرحاً علميّاً عميقاً ودقيقاً موغلاً في قضايا اللغة والبلاغة، أو مسائل الفلسفة والكلام، أو مباحث الأصول والحديث، وإنما كان يركّز على العبر وعلى الدروس الإيمانية التربوية الأخلاقية في القرآن الكريم، وعلى ربط هذه الآيات بأبعادها الاجتماعية المعاصرة، وإسقاطها على واقع الأمة وأوضاعها الراهنة[45].

ويقول في هذا الشأن موضحاً منهجه: "...أركز الحديث على معاني القرآن والقصص الواردة فيه، لا أتعرَّض للنحو والإعراب كما يفعلُ القدماء إلاَّ قليلاً، إذا أردت أن أبيِّنَ الوجه البلاغي في حرفٍ من الحروف، أو تركيب من التراكيب، هذا مما يُفيد الطلبة ويجديهم في صناعة الإنشاء بالخصوص"[46].

ويقول الشيخ عن ربط التفسير بحياة الناس وتربيتهم به ومعالجة أمراضهم: "...في درس التفسير أخرجُ بأسلوبٍ حكيمٍ إلى هذه المواضيع الاجتماعية فأوافيها حقّها، هذا ما يقعُ دائماً... كنت أطرق الحوادث الاجتماعية التي تشغل بال الجمهور..."[47].

أما ثمار هذه الدروس التفسيرية على جماهير الناس وعلى المجتمع فقد كانت عظيمة جداً، لا يقدّر حقيقتها إلاَّ من كان يحضر هذا الجو العلمي الإيماني القرآني العظيم، فقد استطاع الشيخ بتوفيق الله أن يحوّل مسجد القرارة إلى قِبلةٍ علمية تُقصد من كلِّ أنحاء وادي ميزاب وأنحاء القطر الجزائري، وحوّل المسجد إلى إشعاعٍ علميٍّ يستنير منه كل قاصد له، كما استطاع أن يوطِّد أركان حركته الإصلاحية ونهضته العلمية الرائدة من خلال هذه الدروس.

ويتحدَّث الشيخ بيُّوض قائلاً عن آثار دروسه التفسيرية: "إنَّني أحمد الله تبارك وتعالى على النتيجة التي شاهدتها من أثر القرآن في نفوس العامة...، إنَّ البلدة كلها مجنَّدةٌ للعمل في كلِّ ميدانٍ، ما دُعي أحدٌ إلى عملٍ إلاَّ وأجاب، إذا دُعي إلى مالٍ أعطى، وإذا دعي إلى وقتٍ أعطى من وقته وجُهده..."[48].

ويوضح الدكتور محمد ناصر آثار هذه الدروس بقوله: "إنَّ هذا الانقلاب الذي تزعّمه الشيخ بيُّوض يعود إلى نهجه التربوي الرشيد الذي يتبعه في دروس تفسير القرآن الكريم، فقد كان ينتهج نهج العبدويَّة (أي محمد عبده)، ويتبع عرض المجتمع على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عارضاً مشاكله الاجتماعية اليومية، منطلقاً من واقعه المعاش بحصافةٍ وبُعد نظرٍ بعيدين عميقين، وقد انطلق هذا الإشعاع من مسجد القرارة ليعمَّ سائر مدن مزاب"[49].

وخلاصة القول: القرآن القرآنَ فيما نرمي ونصبوا إليه من محاربةٍ للشيطان وحزبه؛ وردٍّ لكيده ووساوسه، والله يقول في محكم تنزيله: **[إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُم عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا؛ إِنَّمَا يَدعُوا حِزبَهُ لِيَكُونُوا مِن أصحَابِ السَّعِيرِ]** (فاطر/6).

لم يتوصل العلماء المصلحون إلى إصلاح نفوس الأمة الجزائرية إبَّان الاحتلال الفرنسي وبعده إلاَّ بفهم القرآن وتطبيق شرائعه وأحكامه والحياة وفق قوانينه نُظمه.

ومما نوصي به في ختام هذا البحث في عناصر موجزة ما يأتي:

- إعادة تحقيق ونشر الطبعات القديمة للتفاسير الأدبية واللغوية، مع إضفاء مزيدٍ من العناية بالإخراج والشكل والمضمون

عليها، وكذا توفير طبعات إلكترونية بمحركات بحث وترويجها عبر العالم العربي والإسلامي.

- النشر الموسَّع للتَّفاسير عبر مواقع إلكترونية متخصصة، والدعاية لها بما يكفي عبر الجامعات ومراكز البحث العلمي في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

- تبادل التفاسير وكذا مجموع الدراسات المتخصصة في علوم القرآن بين أقطار العالم الإسلامي.

- دراسة تاريخ الحركات الإصلاحية في الوطن العربي وجهود أقطابها في خدمة كتاب الله العزيز.

- تعزيز التواصل الحضاري بين الشعوب والثقافات العالمية من خلال الرؤية القرآنية.

- تدعيم أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية والإسلامية بفتح تخصصات الدارسات القرآنية وعلوم التفسير.

- إتاحة الفرصة للباحثين في المجال على مستوى الأمة كلها، كي يتعاونوا ويتفاهموا ويتكاملوا.

- العناية بالتفاسير ذات الوجهة الإصلاحية ودراسة منهج مؤلفيها القرآني في معالجة الانحراف الاجتماعي.

ملحق:

فضيلة الإمام إبراهيم بن عمر بيُّوض وهو يلقي درسه للمسلمين في جامع القرارة (ميزاب)

وترى طلبة القرآن "إروان" ملتفّين من حوله، وعن يمينه وشماله يجلس "العزَّابة"، حوالي 1975م.

صورة أخرى لفضيلة الإمام إبراهيم بن عمر بيُّوض وهو يلقي درسه في جامع القرارة (ميزاب)
وترى طلبة القرآن "إروان" ملتفّين من حوله يسجّلون الدرس بماسكات الصوت، خلال 1975م.

الهوامش:

1 - عبد الحميد بن باديس: رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر الحديثة، وأول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931- 1940)، قاوم الاحتلال الفرنسي بنشر العلم والمعرفة وتفسير القرآن في جامع قسنطينة الكبير، له جريدة الشهاب، والمنتقد...؛ أنظر بتفصيل: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج54/2.

2 - البشير الإبراهيمي: أمير البيان بعد شكيب أرسلان، تولى رئاسة تحرير جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائرين بعد وفاة ابن باديس سنة 1940، فرفع من قيمة الجريدة أدبياً وصارت منبراً سامياً للغة العربية، وقد جمع المقالات الافتتاحية التي كان يكتبها في كتاب أسماه "عيون البصائر"، نفاه الاستعمار الفرنسي إلى صحراء الجزائر سنوات عديدة رجاء أن يعدل عن كتاباته النارية فلم يفلح في ذلك...؛ أنظر: نفسه، ج2، ص97.

3 - الطيب العُقبي: أحد أساطين جمعية العلماء المسلمين الجزائرين وحامي عرينها، شمَّر مبكراً ساعده للإصلاح ومحاربة البدع والضلالات التي كانت متفشية في المجتمع الجزائري، وحارب الطرقية الضالة، وأسَّس جريدته صدى الصحراء لذلك، كما انبرى لتفسير القرآن وإصلاح المجتمع بالقرآن...؛ نفسه، ج2، ص111.

4 - ينظر: حاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، صفحات 13 - 26.

5 - ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج1، ص19.

6 - الطرقية الاستعمارية يقصد بها الطرق الصوفية التي كانت عوناً للمستعمر في تمزيق البلاد ونشر الفساد؛ وهنالك طرق صوفية مستقيمة في نهجها كانت عوناً للإصلاح والمصلحين حافظت على قيم الإسلام القويم واللغة العربية وساهمت في تحرير البلاد من نير الاحتلال في ثورتها المباركة؛ وليس الحديث عنها في هذا البحث؛ أنظر تفصيل ذلك في "تاريخ الجزائر الثقافي" للدكتور أبو القاسم سعد الله، ، دار البصائر – الجزائر، ط6، 2009، ج1، ص481 – 492؛ وكذا كتاب: "أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)"، للشيخ محمد علي دبوز، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج1، ص22 وما بعدها.

7 - ينظر: نفسه، ص22.

8 - ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج1، ص27.

9 - ينظر: نفسه، ص28.

10 - ينظر: نفسه، ص28.

11 - ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج1، ص29.

12 - ينظر: نفسه، ص29، 30.

13 - العزَّابة: أو الهيئة الدينية؛ هي نظام تعليمي تربوي في أصله ثم تطور ليصبح نظاماً اجتماعياً يُشرف أعضائه على تنظيم شؤون الناس العامة في ميزاب؛ وقد سار على توجهاته المجتمع المِزابي في الجزائر من 409هـ إلى تاريخ اليوم، وفي كل مسجد حلقة منه تتولى إدارة شؤون المسجد والصلاة بجماعة المسلمين...

ينظر بتفصيل: العزَّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، تأليف: صالح بن عمر سماوي، المطبعة العربية غرداية، ط1، 2005. يقع كله في ثلاثة أجزاء.

14 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، تحرير عيسى بن الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث؛ ط2، ص24 وما بعدها.

15 - إبراهيم أبو اليقظان (1888م/1973م): من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م؛ أوقفها الاستعمار الفرنسي جميعها عن الصدور الواحدة تلو الأخرى... ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2 ص52 وما بعدها.

16 - ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج5، ص85.

17 - بلدة القرارة من دوائر ولاية غرداية، واحة غناء وأرض منبسطة يسقيها وادي زقرير كل خريف؛ وهي معقل الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب والجنوب الكبير، ممثلة في جمعية الحياة؛ احتضنت الشيخ بيُّوض رائد الإصلاح في العصر الحديث، ومنه انطلقت جهوده في التربية والتعليم إلى تلاميذه الذين انبتوا في قرى وادي ميزاب الأخرى: جمعية الإصلاح في غرداية، والنصر في مليكة، والفتح في بريان، والنور في

بنورة، والنهضة في العطف، والجابرية في بني يزجن. ينظر بتفصيل: محمد عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، مطبعة البعث، قسنطينة – الجزائر، ط2، 2000، ج5، ص85.

18 - ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، ج3، ص76.

19 - ينظر: نفسه، ص77.

20 - ينظر: نفسه، ص77.

21 - ترد التهنئة عادة باللهجة العامية الجزائرية.

22 - جرى العُرف في عموم قرى وادي ميزاب إلى اليوم أن تُقرأ في ليلة الجمعة سورة الكهف جماعة في مجلس ذِكرٍ موسَّعٍ على طريقة المغاربة؛ لذلك لا تقع دروس الوعظ فيها، وصبيحة يوم الجمعة هو يوم راحة للطلاب يقضيه معظمهم في الواحة بعد أسبوعٍ كاملٍ من الجدّ والمثابرة والاستعداد لصلاة الجمعة.

23 - ينظر: محمد علي دبوز،أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975م)،ج3،ص112 - 113.

24 - ينظر: نفسه، ص77.

25 - ينظر: نفسه، ص78.

26 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، تحرير عيسى بن الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث؛ ط2، ص110 - 111.

27 - نفسه، ص111 - 112.

28 - نفسه، ص114 - 115.

29 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، ص139 - 140.

30 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة مريم وطه)، ص462 - 463.

31 - نفسه، ص254 - 255.

32 - الحاج عمر بن يحيى امليكي القراري، وِيرُّو، الشهير بـ"نور القلب" (1858-1921م)؛ تلميذ القطب أطفيَّش وناصره في جهاده العلمي والدعوي، يعدُّ أحد رواد الحركة الإصلاحية الحديثة بالقرارة في مجال التعليم خصوصاً، وهو أستاذ الشيخ إبراهيم بيُّوض ومربّيه، ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص654- 655.

33 - نفسه، ص255.

34 - ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ص193 - 210.

35 - إبراهيم بن عمر بيُّوض، في رحاب القرآن (تفسير سورة الكهف)، ص296 - 297.

36 - إبراهيم بن عمر بيُّوض، درس سمعي بتاريخ: 14 ذو القعدة 1391هـ/ 31 كانون الثاني 1971م، بعد صلاة الجمعة؛ وهو تتمة لسلسة من ثلاثة دورس في موضوع التدخين وأخطاره، وقد صادف الدرس وقوعه قبيل يوم من عقد رحلته إلى الحجاز لأداء مناسك الحج.

37 - ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص835 وما بعدها.

38 - ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر – الجزائر، ط6، 2009، ج1، ص481 - 492.

39 - ينظر: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ص78.

40 - ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص130 - 131.

41 - ينظر: نفسه، ج3، ص130 - 131.

42 - ينظر: نفسه، ج4، ص11.

43 - ينظر: قرقب، الإمام بيُّوض رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري، ص118.

44 - ينظر: الشيخ إبراهيم بيُّوض، في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، تحرير عيس الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث - القرارة، ط2، ص135.

45 - ينظر: قاسم الشيخ بلحاج، معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر، نشر جمعية التراث – القرارة، ط1، 2011، ص361.

46 - ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص129.

47 - ينظر: نفسه، ج3، ص121.

48 - نص حديث الشيخ إبراهيم بيُّوض في ندوة للإذاعة والتلفزيون الجزائري سنة 1980م، منشور ضمن كتاب: في رحاب القرآن، محاضرات مهرجان ختم تفسير الشيخ بيُّوض للقرآن الكريم، نشر جمعية التراث - الجزائر، 1980، ص80.

49 - ينظر: محمد ناصر، حلقة العزَّابة، ص20 - 21.

قائمة المصادر والمراجع:

- حاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، ط1، 1991.

2 - محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921- 1975م)، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، 5 أجزاء.

3 - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، نشر دار عالم المعرفة، الجزائر، ط2، 2013، 4 أجزاء.

4 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة الإسراء)، تحرير عيسى بن الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث، القرارة - الجزائر؛ ط2، 1992.

5 - إبراهيم بن عمر بيُّوض، في رحاب القرآن (تفسير سورة الكهف)، تحرير عيسى بن الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث، القرارة - الجزائر؛ ط2، 1994.

6 - إبراهيم بن عمر بيُّوض؛ في رحاب القرآن (تفسير سورة مريم وطه)، تحرير عيسى بن الشيخ بلحاج، نشر جمعية التراث، القرارة - الجزائر؛ ط2، .1995

7 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر - الجزائر، ط6، 2009.

8 - معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، القرارة – الجزائر، ط1، 1999؛ 4 مجلدات.

9 - محمد ناصر، حلقة العزَّابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، نشر جمعية التراث، القرارة – الجزائر، ط1، 1989.

10 - صالح بن عمر سماوي، العزَّابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، المطبعة العربية غرداية، ط1، 2005؛ ثلاثة أجزاء.

11 - في رحاب القرآن، محاضرات مهرجان ختم تفسير الشيخ بيُّوض للقرآن الكريم، نشر جمعية التراث - الجزائر، 1980.

12 - محمد عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديماً وحديثاً، مطبعة البعث، قسنطينة – الجزائر، ط2، 2000.

13 - قاسم الشيخ بلحاج، معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر، نشر جمعية التراث – القرارة، ط1، 2011.

14 - خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، بيروت - لبنان، 1986.

15 - عيسى قرقب، الإمام بيُّوض رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري (1920-1981)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة - الجزائر، السنة الجامعية (1997 – 1998).

16 - إبراهيم بن عمر بيُّوض، درس ديني بمسجد القرارة - ميزاب - الجزائر، بتاريخ: 31 كانون الثاني 1971م.